Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (8), Issue (6) December (2025)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

الخطاب التفكّهي بين نقد السياسة والتحولات الاجتماعية في العصر العباسي

م.د. هيلين فاضل عباس المعموري
جامعة المثنى/ كلية التربية الأساسية

Humorous discourse between criticism of Politics and social transformations in the Abbasid era

Lecturer Dr. Helen Fadhil Abbas Al-Maamouri
University of Al-Muthanna / College of Basic Education
helen.fadhel@mu.edu.iq

الملخص:

يروم البحث رصد ظاهرة التفكّه في الشعر العباسي، وتأثيره في الحياة السياسية والاجتماعية في هذا العصر؛ إذ يمكننا من طريقه أن نميط اللثام عن وجه المجتمع العباسي في ذلك العصر الذي عرف ببلوغه أعلى درجات التقدّم والازدهار وألوان الرفاهية ويقابله في الجهة الأخرى غياهب القهر وظلام الفقر والمعاناة الصاخبة والبؤس، كما يُسلّط الضوء على دور الخليفة الذي أفرط في لذاته وعاث فساداً في رعيته.يوضّح لنا شعر التفكه جانبي الحياة من الطبقة الأرستقراطية الثرية والطبقات الفقيرة الدنيا، وهو مرآة عن طبيعة الوجدان الشعبي، يصور عاداته وتقاليده، يوضّح آلامه، ويبلور آماله؛ إذ لم يُمثّل هذا الشعر مجرد التسلية والترفيه فحسب، بل نبع من الضغوط السياسية والاجتماعية التي ولّدت شعر التهكّم السياسي والاجتماعي، ويرصد البحث مساحة المضمون الفكري، ويبسّط لنا الصياغة الجمالية الفنية لصورة ولوحاته، مبلوراً وظائفه التي يؤديها على مختلف الاتجاهات من وظائف: نفسية واجتماعية وأخلاقية وإصلاح لفساد المجتمع ومحاولة تقويم المعوج وتهذيب الغريب الشاذ في وتصوير بديع وتعبير بليغ.**الكلمات المفتاحية: التفكّه، السياسة، التحولات الاجتماعية، العباسي.**

Summary:

This research aims to examine the phenomenon of humor in Abbasid poetry and its impact on the political and social life of that era. Through it, we can unveil the face of Abbasid society during that period, which was characterized by its attainment of the highest levels of progress, prosperity, and affluence, yet was also marked by the depths of oppression, the darkness of poverty, widespread suffering, and abject misery. The research also sheds light on the role of the caliph, who indulged excessively in his pleasures and wreaked havoc on his subjects.Humorous poetry illuminates the two sides of life: the wealthy aristocracy and the lower, impoverished classes. It serves as a mirror to the nature of popular sentiment, depicting its customs and traditions, revealing its pains, and crystallizing its hopes. This poetry did not merely represent amusement and entertainment but rather stemmed from political and social pressures that generated political and social satire poetry. The research monitors the space of intellectual content and simplifies for us the aesthetic and artistic formulation of its image and paintings, crystallizing its functions that it performs in various directions of functions: psychological, social, moral, reforming the corruption of society, attempting to correct the crooked, refining the strange and abnormal, in beautiful depiction and eloquent expression.

Keywords: humor, Politics, social transformations, Abbasid

المقدمة:

وجدت ظاهرة الفكاهة في دواوين العديد من الشعراء الذين يمثلون العصر العباسي؛ إذ صاغوا مضامين البؤس واللهو، والفقر والترف، وصوروا من مختلف الزوايا النفسية الشعب على مختلف مستوياته، وبصوره المختلفة من الحاكم، والعامّة، والمركز والهامش، والعدو والصديق، والمرأة والطفل، ومختلف ظواهر المجتمع من بخل وفقر، وتطفّل، وحسد، وصوّروا اللحى والصلع، ونقد الذات والسخرية من الزوجة، وقد جاء ذلك عن

ظُرف، أو سخرية، أو تهكّم، أو فكر عميق، ومعاناة منسوجة في صور جمالية حققت لأصحابها النجاح والشهرة، وضمنت تردّدها على لسان العامّة في حياة الشاعر وبعد وفاته.وقد حمل لواء هذا اللون من الشعر أعلام كان لهم باع في غرض المدح والهجاء، وغير ذلك من الأغراض، فمنهم زعيم المحدثين بشار بن برد، ورائد شعر الخمريات أبو نواس، ودعبل الخزاعي صاحب الهجاء اللاذع، وابن الرومي رائد التصوير الكاريكاتيري الساخر، وأبو العبر حامل لواء الكدية، وأبو فرعون الساسي، وأبو المخفف زعيم فن الشحاذة وشعر الفقر، وأبو الشمقمق المتحدث الرسمي لشعر الفقر والفقراء، وأبو دلامة صاحب النادرة والمنادمة المرحة، وغيرهم من الشعراء.وموضوع الفكاهة من الموضوعات التي أثيرت في مصادر الأدب العربي القديم، نحو: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، وزهر الآداب للحصري القيرواني ، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ويتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، علاوة على مؤلفات الجاحظ: البخلاء، والحيوان، والبيان والتبيين، ورسائله في التفكّه والسخرية، أمّا حديثا فكتاب الفكاهة في الأدب للدكتور الحوفي في جزئين، والفكاهة في مصر للدكتور شوقي ضيف وكتاب : الفكاهة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور فتحي محمد عوض أبو عيسى، كل هذه الدراسات أسهمت بشكل كبير في ايضاح هذا اللون من الأدب العربي شعره ونثره على السواء، لكنها لم تختص بدراسة الفكاهة في الشعر أو النثر العربي في عصر من العصور. سيحاول البحث في الأوراق القادمة الكشف عن التشكيل الجمالي لشعر الفكاهة، في لغته، وصوره؛ إذ جمع بين جانبي الإمتاع الفني والإقناع الفكري، ويستعين البحث بالمنهج النفسي لدراسة نفسية الشعراء وما وراء ذلك من دوافع لأبعاد شخصية هؤلاء الشعراء واستعدادهم الفطري وتكوينهم الفسيولوجي والمنهج الاجتماعي لارتباط الشاعر بمجتمعه؛ إذ هو جزء من إبداعاته.

مضـــان التفكّـــــه:

التفكه لغةً:

قبل الخوض في مضامين شعر التفكّه علينا الوقوف على كل معاني الكلمة من طريق المعاجم اللغوية، وما يتخللها من ايضاحات، حتى لا يلتبس علينا الأمر.رجل فَكِهٌ: يأكل الفاكهة، وفاكِهٌ: عنده فاكهة، وكلاهما على النّسب، قال أبو معاذ النّحوي: الفاكه الذي كثرت فاكهته، والفكه: الذي ينال من أعراض الناس، والفاكهاني: الذي يبيع الفاكهة.قال سيبويه: ولا يقال لبائع الفاكهة فكّاه، كما قالوا: لبّان، وتبّال، لأن هذا الضرب سماعي لا اطرادي. وفكه القوم بالفاكهة: أتاهم بها والفاكهة أيضاً الحلواء على التسمية.وقال الجوهري: الفَكاهةُ بالفتح مصدر فكه الرجل، وبالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيب النفس مزاحاً، والتفاكه: التمازح، والمفاكهة: الممازحة، ويُقال للمرأة: فَكِهةٌ، وللنساء: فَكِهاتٌ [١].

أنواع الفكاهة:لقد حار الباحثون في وضع تعريف جامع للفكاهة؛ لكثرة أنواعها وتباينها؛ فهي تشتمل على: السخرية، واللذع، والتهكّم، الهجاء، والنادرة، والدعابة، والمزاح، والنكتة، والقفش، والتورية، والهزل، والتصوير الساخر[2] **السخرية:** أعمق أنواع الفكاهة؛ لما تحتاج إليه من ذكاء ومكر وخفاء، وهي أداة الكتّاب وسلاح الفلاسفة، ويستعملها الحكّام للنكاية بخصومهم لتكون حينها تقريعاً أو تهكماً، فالتقريع، والتهكّم واللذع من أنواع السخرية.**الهجاء:** وإشكالية الفصل بينه وبين التهكّم تكمن في أنَّ صاحب الهجاء يعبث بمهجوه عبثاً لا يتخلله رقّة ولا خفّة، بل يتضمّن الفضاضة والخشونة، فلا يهمه شعور المهجو، أمّا التفكّه والسخرية فيعتمد الرّقة دون تجريح صريح، وكذلك الغرض، فالتهكّم يرمي إلى التقويم والإصلاح والتهذيب ومعالجة المشاكل الاجتماعية، بينما يهدف الهجاء إلى التشنيع والتقريع ووقع الضرر النفسي بكلّ ما امتلك الشاعر من أدوات أسلوبية، ومن أنواع الهجاء: الاقذاع والسّب، يُعرف عن التفكّه والتهكّم التنبيه والإرشاد دون السّب والاقذاع[3]**التهكّم:** ويعتمد على المرح النفسي عند المتكلّم، والبراعة في تصوير الفكرة بطريقة فكهة، ليس فيها سبّ أو قذع كما في الهجاء، ويعمد صاحب التهكّم في أدواته إلى التهويل والمبالغة في صوره الشعرية.**النادرة:** هي الخبر القصير أو القصة القصيرة التي تُسبب الضحك وهي مكتوبة في العادة، وقد ضمّت كتب الأدب العربي الكثير من النوادر التي شملت أخبار المعلمين والقضاة والبخلاء نحو: البخلاء للجاحظ، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، والمستطرف في كل فن مستظرف للأشبيهي، وجمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري القيرواني، وغيرها الكثير.**الدُّعابة:** من أخف ألوان الفكاهة، وهي فكاهة الأشخاص الوقورين، إذ يقولون ما يدعو إلى الابتسامة الخفيفة، ولا تحمل الدُّعابة خبثاً ولا سمّاً وإنما تحمل البهجة والمرح.**النكتة:** هي فكاهة المجالس، ولابد لها من طرفين على الأقل، إذ ينتهز أحدهما كلمة لصاحبها فيمدّ فكرتها إلى أن تعبّر عن نقيض ما يريد، فيحس أنّ صاحبه ينصب له شراكاً ليقع فيها، وتعتمد النكتة على التورية في الألفاظ، وتستمد من سرعة البديهة وخفّة الروح، فيعمد إلى مغالطة صاحبه في ألفاظه ويضحك الحاضرون لهذه السرقة العلنية المكشوفة التي تقوم على المناورات اللفظية[4]

النقد السياسي: لقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، فأحاطوا أنفسهم بهالة من البهاء والتقديس، التي كان لها أثراً بالغاً في الخضوع والخنوع للظلم والفساد الذي اضطرت إليه الرعية؛ إذ كان الحكم العباسي حكماً استبدادياً، لا يحسب

حساب للرعية، يقوم على القمع لكلّ معارضيه[5] .ومن هنا ظهرت الأزمات والضغوط التي أنتجت شعر السخرية والتهكّم الفكه تحت وطأة الضغط السياسي، فقد يُخطئ الملوك والحكام حينما يظنون أنَّ سياطهم وسطوتهم كفيلة بأن تجنبهم جراحات الألسنة وسهام النوادر السامّة التي يطلقها العامّة نحوهم على لسان الشعراء.إنَّ كثيراً من النوادر والفكاهات التي تصوّر الحالة السياسية قد كساها الشعراء المتفكهون برداء المبالغة؛ ليجسموا الصورة، ويتفننوا فيها، فيعظم وقعها وتأثيرها على المتلقي، ولهذا التهكم الفكه فائدتان: الأولى للتنفيس والتخفيف عن المظلومين المكبوتين وراحة لأنفسهم التواقة للتعبير عن رفضها للظلم من غير أن تُصاب بالأذى، والثانية عقاب وتأنيب وثأر وتهذيب، وردع للظالمين وعظة لغيرهم.وثمّة شعراء آخرون اجتازوا العقبات واخترقوا حجب وهيبة السياسة وصرّحوا بهجاء الخلفاء في لفظ ظاهر دون تلميح، ومنهم: دعبل الخزاعي، وبشار بن برد الذي هجا الوزير يعقوب بن داود الذي اشتهر بحبه للهو والمجون؛ إذ قال[6] :

بني أميّــة هبُّوا طالَ نومكــم إنَّ الخليفةَ يعقوبَ بن داودِ

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفةُ اللهِ بين الزّقِ والعودِ

لقد أدّت السخرية دوراً خطيراً في ميدان السياسة بما تملكه من تأثير وقدرة على لفت الأنظار، وجذب الانتباه نحو الظاهرة البارزة في نظم الحكم وأخلاق بعض الساسة وانحرافاتهم، وتعمل على تكوين الآراء وتوجيهها نحو هدف معين، وقد حمل لواء المعارضة السياسية دعبل الخزاعي الذي كان دائما ما يحمل كفنه على يده منتظراً القتل والانتقام بعد أن يقول ما يريده، ومن أبرز صوره الهجائية تلك الأبيات التي قالها في المعتصم؛ إذ كانت شديدة اللهجة حادّة السخرية ذات وقع مؤلم، حين قال[7] :

ملوك بني العباس في الكتبِ سبعةٌ ولم تأتنا عن ثامن لهم كتبُ

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عدُّوا، وثامنهم كلبُ

وإنّي لأعلى كلبهــم عنك رفعــةٌ لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنبُ

ولما ضعفت خلافة بني العباس وتنازع الوزراء السلطة فيما بينهم، حتى أصبحت الوزارة منصباً محفوفاً بالأخطار، لا يطمأن إليه من يتقلده، ولا يأمن صاحبه تقلبات الزمن، سخر الشعراء من الوزراء ومن قلقهم في مناصبهم واضطراب الحياة من حولهم، وهذا أحمد بن اسحاق بن البهلول يسخر من تقلد ابن الفرات الوزارة للمرة الثالثة بقوله[8] :

قُلْ لهذا الوزيرِ قولَ مُحقٍّ بَثَّهُ النُّصح أيّمــا ابثاثِ

قد تقلدتهــا ثلاثا ثلاثــاٍ وطلاقُ البنات عند الثلاثِ

فالشاعر يُحذّر الوزير هنا ويُذكره بأنَّ وزارته هذه هي الفرصة الأخيرة لديه، وكأنه يحذره من مغبة الوقوع تحت طائلة التشرد والطرد لا بل الفتك، شأنه شأن المرأة التي لم يعد بينها وبين الخروج من بيت زوجها إلا خطوة واحدة لا رجعة بعدها، وبالفعل تؤكد الأحداث قول الشاعر؛ إذ لم تمضِ أيام على ابن الفرات بعد ذلك حتى عُزل من الوزارة وخرج منها بلا عودة.وكما تقدّم فقد كان للشعر دور بارز في مضمار الحكم والمجال السياسي؛ فلم يسلم الخلفاء والوزراء من ألسنة الشعراء الحادّة الساخرة؛ فهذا ابن تقله الذي تولّى الوزارة مرات عدّة في عهد المقتدر بالله والراضي بالله والظاهر بالله، وكان يُكرّم، ويعظّم نفوذه ثمَّ يُعزل، وفي عهد الراضي طُرد وقُطعت يمينه، ثم عاد إلى الوزارة، حتى حسب الناس أنه لن يُعزل منها أبداً، ومع ذلك فقد تفكّه وسخر منه الشاعر بقوله[9] :

وقالوا: العزل للوزراء حيفى لجاه الله من أمــرٍ بغيضِ

ولكــن الوزيــر أبا على من اللاتي يئسن من المحيضِ

لقد سخر الشاعر سخرية لاذعة من الوزير؛ إذ هزء منه وجعله موصوفا –لدوام توليه الوزارة وطول بقائه– بالنساء اللاتي فات عليهن أوان الشباب وأصبحن في سن اليأس، وهي سخرية لاذعة ساخرة نال بها الشاعر من الوزير.لقد كانت علاقة الشعراء بالحاكم علاقة منادمة ومديح، مع تصوير صادق وساخر من الأوضاع التي أصبحت فيها السياسة العباسية كلّما وجد الشاعر فرصة للتعبير عن استياؤه منها، أو انتقاده لها، ويؤكد ذلك طه حسين؛ إذ ذهب برأيه إلى ارتباط الشعر بالعصر، فإذا أردنا أن نأخذ من العصر صورة صادقة ونحكم عليه حكما صادقاً فليس لهذا سبيل سوى شعر الشعراء الذين يمثلون صورة للمجتمع بكلّ طبقاته وآراءه، ويعبرون عن أهوائهم وميولهم وكل ما تقع عليه أعينهم وما تضطرب فيه من ضروب الحياة، وخير مثال على ذلك أبو نواس؛ إذ أكد طه حسين أنَّ شاعراً مثل أبي نواس بلغ ما بلغ من الشهرة، وفتن به الناس في بغداد والعراق ومصر والشام، وحفظوا شعره وتناشدوه ويتخذونه مثالاً للذة ونعيم الحياة إذا لم يكن لساناً لهم في صدقه، ومرآتهم الصافية؟ كلا ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تربط بين هؤلاء الشعراء وعامّة الناس[10] .

صورة الحاكم والتهكم السياسي كان الخليفة العباسي يعيش في برج عاجي، قلما يخرج من حدوده الضيقة لمعرفة هموم الرعية وآمالها، لا يعرف عنهم إلّا القليل، فهو دائم الانشغال بملذاته وشهواته، وكلّ شيء طوع أمره، جلبت الفتوحات عليهم أموالاً طائلة لا عهد لهم بها، وقد توسّل الشعراء بالفكاهة والتهكّم لإيقاظ الخلفاء واقتراض مثالية الحاكم المفقودة الغائبة؛ إذ أضفى الشاعر على ممدوحه صفات الحاكم العادل التقي في إيمائه خبيثة للفت انتباه السلطة لما تفقده.والشاعر صاحب كلمة، والحاكم صاحب سلطة، ولا مقارنة بين القوى؛ إذ يملك الثاني ما لا يستطيع ردّه الأوّل، لكن ثمّة طريق اتخذه الشاعر للتعبير عن رأيه الحقيقي تمثّل في شعر التفكّه والسخرية الذي تهكّم بواسطته الشاعر بسياسة الحكم وبطشها، وعدم اهتمامها بالرعية، فتوسّل الشاعر بالرمز والتورية وبث المضمر بين سطور التفكّه ليترك الأثر في نفوس سامعيه، ويبلغ مراده في إيصال رسالته للمتلقي، ممّا جعل تلك الرسالة تُشكّل خطراً على السلطة الحاكمة، وممّا حدا بالشاعر إلى التعامل بحذر في طرح تلك الانتقادات. تُظهر لنا سيرة الحاكم واقعاً لطبيعة العلاقة بينه وبين الرعية، بين بطش الخلفاء وسياستهم وفكر الشعراء وإبداعاتهم، وكان ثمّة شعراء أماطوا اللثام عن التستر وصرحوا بالسخرية اللاذعة، فأطلقوا سهامهم نحو انتقاد السياسة الحاكمة، لا يقيمون وزناً لبطش الخليفة وكيده، وخير من حمل هذا اللواء هو الشاعر العباسي الشيعي دعبل الخزاعي، كما كان لبشار بن برد أيضاً نصيباً من ذلك لكن ليس بالقدر الذي كان عند دعبل الخزاعي، ومن لوحات الهجاء الساخر لسياسة الحاكم التي أطلقها دعبل الخزاعي من غير إضمار ما سخر فيه من مجموعة من الكُتّاب وحاشية الخلفاء الذين لا يفترقون عنهم، ويعدّون من كبار رجالات الدولة؛ فهجا الحسن بن سهل ومن معه من الكتّاب؛ إذ قال عندما نزلوا المخرم ببغداد[11]:

ألا فاشتروا منى ملوك المخرم أبع حَسنا وابني هُشام بدرهم
وأعط رجاء فوق ذلـك زيادة واسمـحُ بدينارٍ بغيـر تقدّم
فإن ردَّ من عيبٍ عليَّ جميعهم فليسَ يُردُّ الغيب يحيى بن أكثم

تصرخ هذه الأبيات بطبقة عالية من التفكّه والسخرية وصلت إلى تصوير بيع هؤلاء الكتاب فلا قيمة لهم وبائعهم مغبون، ومن يشتريهم هو الآخر خاسر خسارة كبيرة، بالرغم من تحديد ثمن بخس لهم وهو دينار، ذات المقدار عديم القيمة النفعية العالية في ذلك العصر، وهذا ليس غريب على دعبل الخزاعي الذي ما ارعوى هجاء المعتصم.كما سخر دعبل الخزاعي من كبار رجالات الدولة وكتّابها ممّن عرفوا بـ(آل بسام) في إعلان صريح باسمهم ونعوتهم، في قوله[12]:

يا آل بسّام في المخازي وعابس الوجه في السؤالِ

ويتندر من آل طاهر القائد العباسي الشهير (طاهر بن الحسين) ويجمع معه بنيه في لوحهفكهه ساخرة، في قوله[13]:

تولّى طاهرٌ من بعدِ أنْ قَدْ أقامَ فـلا يسـأم ولا يسومُ
وأبقـى طاهرٌ فينـا ثلاث عجائبَ يستخفُ لها الحلومُ
ثلاثـــةُ أعبـــدٍ لأبٍ وأمٍ تميز عـــن ثلاثتهـــمْ أرومُ

وهذا لون جديدٌ في التفكّه والسخرية، ابتكره دعبل الخزاعي؛ إذ جعل سخريته وفكاهته شاملة جامعة لأكبر عدد ممكن مع تواجد الصورة المفردة، ومن أبرز الهجاء الساخر عند دعبل ما كان موجّه نحو الخلفاء والحكام والوزراء، ينتقد سياستهم، ويُعارض تصرفاتهم، ويُعدّ هذا اللون أوضح ألوان الهجاء السياسي الذي يختلط أحياناً بالاجتماعي، وهو بلا شك أعنف ألوان الشعر السياسي وأكثره دقّةً ووضوحاً في الكشف عن مثالب المجتمع الذي تعقدّت فيه الحياة، فكان تفكّه بنّاء بثّ عبره دعبل الكثير من انتقادات السلطة[14] ومن خلال صور دعبل الفنية يصور سخطه على النظم الاجتماعية القائمة، فالشاعر كان لسان حال السياسي المعارض للدولة، أو المؤيد لها إذا رغب، وقد فاق دعبل الشعراء لما عرف عنه من جرأة وصراحة[15] .

العصر العباسي وروح التفكّه:يُعدّ الأدب مرآة صادقة لصورة العصر ومجتمعه بكل ما يُحيطه ويؤثّر به، وبذلك فإنَّ الشعر وثيقة سياسية اجتماعية تاريخية لكن بطريقة إبداعية فنية يختلف فيها دور نقل المؤرخ للتاريخ والأحداث عن الأديب الشاعر، وشعر التفكّه صفحة واسعة تتقلب طياتها بين قمة المجتمع وقاعه، بين المحكوم والحاكم، وبين الإفراط في العبث والمجون، والتفريط في أدنى حقوق الإنسانية للجياع العراة، الذين لا يجدون ما يسد رمقهم.ويتعرض الشعر للمجتمع في أمنه وقلقه؛ فالأدب يتأثر بما يدور حوله، وتغذيه المتغيرات، وتنميه المؤثرات، وتحركه العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على صفحات الأدب المعاصر لهذه التغيرات[16] لقد طرأت تغيرات كثيرة على المجتمع العربي في العصر العباسي، كان لها أثراً في تشكيل صورة للمجتمع بملامح خاصة به، من هذه التغيرات الفتوحات المتتالية، وتأثيرها في امتزاج العرب بأجناس أخرى؛ إذ تعرّف العربي على بيئات مختلفة في الطبيعة والحضارة، امتزجت بالمجتمع امتزاجا اثرت فيه إيما تأثير، ولا شك أنَّ ظاهرة التفكّة في

الشعر العباسي لم تتبع من فراغ؛ بل نشأت نتاج عوامل عدّة أدّت إلى تواجدها وظهورها بشكل مُلفت للنظر، وارتبطت هذه الظاهرة بطبيعة العصر، على صعيد الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية[17] .

النقد الاجتماعي في العصر العباسي:لقد أثر الحكم العباسي تأثيراً واضحاً على الحياة الاجتماعية والواقع المعيش؛ فتنوعت الطبقات الاجتماعية بمختلف أشكالها التي كانت بين طبقة الحكم الطبقة الارستقراطية، وطبقة الاقطاع، وعلّية القوم من الأغنياء والوجهاء، وطبقات فقيرة بائسة لا حول لها ولا قوّة، وقد شاع في المجتمع العباسي ظواهر مُتضادّة نحو: الزهد والمجون، وكان الأخير حاضراً بين أروقة البلاط وعامّة الناس؛ نظراً لاقتحام الجواري على اختلاف جنسياتهن وسوق النخاسة وأثرها في تيسير المتع حرامها وحلالها؛ إذ كانت المرأة متوفرة في مجالس اللهو والغناء، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء، وتُهادى بين الوزراء[18]وكان العرب مندفعين اتجاه هذا النوع من اللذّة في المجتمع، والتي نأت عنها جانبا المرأة الحرّة العربية، لتتصدّر الظاهرة الجواري والغلاميات، علاوة على وجود الغلمان بوصفهم من أساسيات المجالس العباسيّة الماجنة، وظهرت طائفة من الشعراء المجّان الذين ترددوا كثيرا على بيوت النخاسين وتغزّلوا بالجواري والغلمان، وكان هذا من دواعي الشهرة والحظ العظيم لديهم، ومن هؤلاء الشعراء: والبة بن الحباب، والحسين بن مطير، والحسين الضحاك، وحماد عجرد ومطيع بن إياس؛ إذ أتقن هؤلاء الشعراء العبث واللهو والمجون وإشاعة الفسق، وكان انطلاقهم الأوّل من بلاط الخليفة العباسي، بعد الحصول على قبوله ومباركته، ليكون بمثابة الإعلان للعامّة بعدم تعرّض الخليفة لصاحب هذه الأغراض.[19]لقد ظهر في هذه الظروف شعر يتضمن التهكم الاجتماعي، بوصفه معادلاً موضوعياً لبيان الفساد والفجور المنتشر بين طبقات المجتمع العباسي، ورفضه والتمرّد على مباركة الخليفة له؛ فسخر الشعراء من العيوب الاجتماعية التي تهدد المجتمع بالتخلف والجمود وتسبب لأفراده الضيق والسخط، ولو أن الشعراء لم يظهروا هذا الضيق وأضمروا السخط دون أن يعبروا عن أنفسهم لأضرَّ بهم كثيراً وعجزوا عن حماية المجتمع والمحافظة عليه وضمان تقدمه، إنَّ السخرية الاجتماعية هي تعبير عن النفس وترويح عنها من ثقل المعاناة وقيود السلطة، وهي عقاب لمن يجترئون على المجتمع ومقدساته ويعبثون بعاداته وثوابته القيمية، ووضع مقاييس للذوق العام، وتأديب المنحرفين وإصلاحهم حين لا يكون انحرافهم هذا داخلاً تحت طائلة قانون من قوانين الردع والعقاب.والسخرية تحتاج إلى خبرة بالمجتمع ودراية بأحواله ومعرفة بكل تطوراته، وبها حاجة إلى وإلى ذوق رفيع مرهف، وقدرة على الصياغة الأدبية، في ذكاء وفطنة وحسن تصوير؛ فهي نوع من النقد والنقد الاجتماعي في قالب شعري ساخر، يترك للجمهور استعداداً للتأثر والحركة ضد الاعتداءات الموجهة للمجتمع، إذ تُمثّل الفكاهة وسيلة يسترد بها الإنسان نشاطه ويخفف عنه أثقاله، حين لا يستطيع أن يخفف ضيقه، أو يقاوم العيوب المجتمعية مقاومة مادية[20] إن العيوب الاجتماعية في حقيقة أمرها نوع من الجمود والتخلّف عن مجاراة المثل الأعلى، ولا سبيل أنفع وأقوم من التهكّم والفكاهة لتقويم الاعوجاج، وعلاج الأمراض المجتمعية، وحمل المجتمع على المرونة في الطباع والأخلاق والأعمال، وقدرة التهكم الاجتماعي في الشعر جديرة بالبحث والاهتمام؛ فهي تبصر بأحواله في دراية ودقة لملاحظة عيوبه، وتتوسل بالخيال المسعف للموازنة بين الواقع المعيش، وما يجب أن يكون عليه، ويحتاج هذا الشعر إلى قدرة عالية تُفرّق بينه وبين الهجاء؛ إذ يكون سهام الهجاء موجّه في سياق الحقد والضغينة، والتهكّم سياقه النقد والإصلاح بمختلف أنواعه.

ومن ذلك النقد الاجتماعي تهكّم الشاعر جحظه البرمكي وتصويره لظاهرة الفقر والبؤس لديه في قوله [21]:

تعجبتْ إذْ رأيتني فوقَ مكسورِ ... من الحميرِ عقيرَ الظهـــرِ مضرورِ
من بعد كلّ أميرِ الرسع معترضٍ ... في السَّيرِ تحسبه، إحدى التصاويرِ
فقلتُ لا تعجبي منّـي ومن زمنٍ ... أخنى عليَّ بتصفيـــق وتقتيـــرِ
بل فاعجبي من كلابٍ قد خدمتُهُم ... تسعيـنَ عامـاً بأشعاري وطنبوري
ولم يكـن في تناهي رجالهم بهُمُ ... حُرٌّ يعودُ علـى حالِـي بتغيـــرِ

وغالبا ما يكون النقد الاجتماعي موجهاً لنقد فرد أو خُلق أو ظاهرة من الظواهر المعروفة؛ فملاً سَخرَ الشعراء العباسيين من اللحى الطويلة، أو من أصحابها، ولم يكن ذلك إلّا توبيخاً للذين جعلوا منها ستاراً للتخفّي يخدعون به عامّة الناس، يكمن وراء بعضها الانحراف في السلوك، كما نقد البعض الآخر اللحى الطويلة المتهدّلة؛ إذ عدّها من مظاهر القبح التي تُقلل من شأن صاحبها وتجعله يُثير السخرية، ومن هؤلاء الشعراء آدم بن عبد العزيز الذي سخر من سليمان بن المختار في مجلس الخليفة المهدي؛ إذ كان ذا لحية عظيمة، فطلب آدم قصّها أو جزّها وحرقها في قوله[22]:

قد استوجب في الحكم ... سليمانُ بن مختارِ
بما طَوَّلَ من لحيـــ ... تِهِ جزّاً بمِنشـارِ

أو السَّيفِ أو الحلـقِ أو التَحريقِ بالنّارِ

فَقَدْ صَـارَ أَشهَـ ـرِ من رايَةِ بيطارِ

أمّا السيد الحميري فرأى أن يحلق اللحية إذ نظر لها من جانب معنوي لانتقاد الشعراء للحية الطويلة وجعلها رمزاً للمنكر والخداع، فقال[23] :

سأحلِقُ لحيته إنَّها شهودٌ على المُنكَرِ والزّورِ

ولإبن الرومي رأيٌ آخر في اللحى؛ إذ يُشكك في قدرة صاحبها على قول الشعر، مثلما قال في وصف البحتري[24] :

البحتريّ ذنوب الوجه نعرفهُ وما رأينا ذنوبَ الوجهِ ذا أدبِ

كما سخر الشعراء بأسلوب فكه من خوف وجبن بعض رموز المجتمع العباسي ومنهم الحسين بن إسماعيل الطاهري الذي وجّه ابن الرومي نحوه خطابه التفكّهي ذو الصبغة التهكمية في قوله[25]:

وفارسٌ ما شئت من فارسٍ يهزمُ صفينِ منَ القملِ

وقد حمل هذا الخطاب اللاذع وصفاً قاسياً لابن إسماعيل حين جعله كالحشرة عديمة النفع، وكثرت مثل هذه الخطابات في العصر العباسي؛ ولم تكن لملامح الإنسان الخارجية فقط، فراحت تنقد بخطاب تفكّهي بعض الصفات المعنوية نحو: ضيق الحال، البخل، الأنساب، الغباء والسماجة، التناقض، الإخلال بالوعود...وغيرها[26] .

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث نصل إلى جملة من النتائج كان من أهمها:

-ضمّت الفكاهة أنواع عدّة منها: السخرية، واللذع، والتهكّم، الهجاء، والنادرة، والدعابة، والمزاح، والنكتة، والقفش، والتورية، والهزل، والتصوير الساخر، وكان أعمق أنواعها السخرية؛ لما تحتاج إليه من ذكاء حاد ومكر وخفاء، وهي أداة للنقد والتقريع.

-لقد أدّى الخطاب التفكهي دوراً خطيراً في النقد السياسي؛ بما يملكه من تأثير وقدرة على لفت الأنظار، وجذب الانتباه نحو الظواهر السلبية في الحكم، وبعض أخلاق الحاكم وانحرافاته.

-مثّل النقد الاجتماعي معادلاً موضوعياً لبيان الفساد والفجور المنتشر بين طبقات المجتمع العباسي، ورفض بعض الشعراء له.

-قدرة التهكم الاجتماعي في الشعر ظاهرة جديرة بالبحث والاهتمام؛ فهي تبصر بأحوال المجتمع بدقة عالية، وتتوسل بالخيال لرفض الواقع المعيش واستبداله بما يجب أن يكون عليه.

المصادر والمراجع:

- الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ): تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، مطبعة السعادة، ط١، القاهرة، ١٩٣١م.
- حديث الأربعاء، طه حسين، دار المعارف، ط١٣، القاهرة، ١٩٨١م.
- ديوان ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريح (ت٢٨٢هـ): تحقيق: عبد الأمير علي مهنا، دار مكتبة الهلال، ١٩٩١م.
- ديوان السيد الحميري، أبو هاشم إسماعيل بن محمد(ت١٧٣هـ): تقديم: نواف الجرّاح، دار صادر، ط١، بيروت، ١٩٩٩م.
- ديوان دعبل الخزاعي، دعبل بن علي الخزاعي (ت٢٢٠هـ)، جمع وتحقيق: عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، ط٢، بيروت، ١٩٧٣م.
- زهد المجان في العصر العباسي، علي إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٤م.
- السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين(دكتوراه)، عبد الخالق عبد الله عوده عيسى، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٣م.
- سيكولوجية الفكاهة والضحك، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، ١٩٥٨م.
- شعر زهد المجّان في العصر العباسي الأوّل دراسة في ضوء النقد الثقافي، د. هيلين فاضل عباس المعموري، مؤسسة دار الصادق الثقافية، ط١، العراق، ٢٠٢٣م.
- الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، د. علي إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٩٨٣م.
- العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٩، ١٩٨٦م.

- العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٩، ١٩٨٦م.
- الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها، د. أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٦م.
- الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٨م.
- لسان العرب، ابن منظور(ت٧١١هـ)، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.
- مجلة فصول، المجلد الرابع عشر، شتاء، ١٩٩٦م.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت ٦٥٦هـ): تحقيق: أحمد فريد الرفاعي، دار المأمون، القاهرة، ١٩٣٨م.
- الهجاء والهجاؤن في الجاهلية، د. محمد حسين، دار النهضة العربية، ط٢، بيروت، ١٩٧٠.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (ت٦٨١هـ): تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة بولاق، ١٩٤٨م.

هوامش البحث

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور(ت٧١١هـ): اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، مادة فكه: ٧/١١٠-١١١.

(2) ينظر: الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف: ١١.

(3) ينظر: الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها، د. أحمد محمد الحوفي: ١/١٥.

(4) ينظر: مجلة فصول، مج/١٤: ٣٠٦.

(5) ينظر: العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف:٢٣.

(6) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (ت٦٨١هـ): تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد:٤٣٧.

(7) ديوان دعبل الخزاعي، دعبل بن علي الخزاعي (ت٢٢٠هـ)، جمع وتحقيق: عبد الصاحب عمران الدجيلي:١٠٢.

(8) ينظر: الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها:٢/٥٧.

(9) ينظر: العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف: ١٢.

(10) ينظر: حديث الأربعاء، طه حسين:٢/٢٨.

(11) ينظر: ديوان دعبل الخزاعي:٢٥٢.

(12) ينظر: ديوان دعبل الخزاعي: ٢٧١.

(13) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٣.

(14) ينظر: الهجاء والهجاؤن في الجاهلية، د. محمد حسين:٥٧.

(15) ينظر: الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، د. علي إبراهيم أبو زيد: ١٥٤.

(16) ينظر: زهد المجان في العصر العباسي، علي إبراهيم أبو زيد:١١.

(17) ينظر: المصدر نفسه: ١٣.

(18) ينظر: العصر العباسي الأول: ١٣.

(19) للاطلاع بشكل موسع ينظر: شعر زهد المجّان في العصر العباسي الأوّل دراسة في ضوء النقد الثقافي، د. هيلين فاضل عباس المعموري: ٤٧-٧١.

(20) ينظر: سيكولوجية الفكاهة والضحك، زكريا إبراهيم:٢٠.

(21) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت ٦٥٦هـ): تحقيق: أحمد فريد الرفاعي:٢/ ٢٤٩، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ):٤/٦٥-٦٩.

(22) ينظر: الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، ١٥/١٣٩.

(23) ديوان السيد الحميري، أبو هاشم إسماعيل بن محمد(ت١٧٣هـ): تقديم: نواف الجرّاح: ١٠٢.

(24) ديوان ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريح (ت٢٨٢هـ)، تحقيق: عبد الأمير علي مهنا:١/٣٠١.

(25) ديوان ابن الرومي: ٥/١٠٣.

(26) للاطلاع بشكل موسع ينظر: السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين(أطروحة)، عبد الخالق عبد الله عوده عيسى: ٥١-١٠٧.